تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

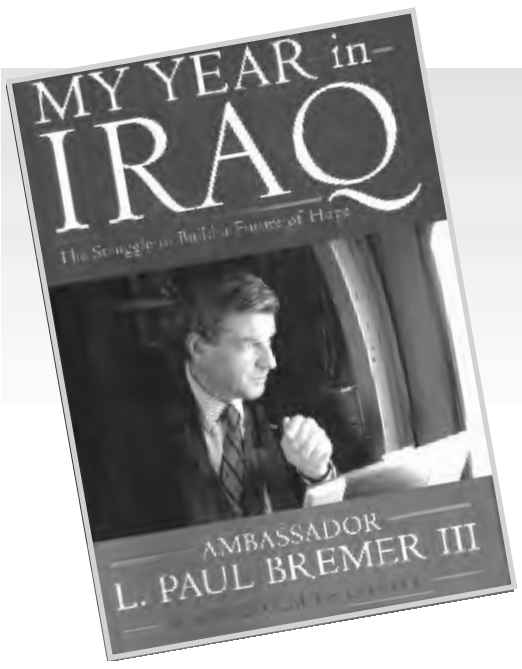

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة/ د. عابد اسماعيل

(الحلقة الرابعة و الثلاثون)

الجزء الثاني
الفصل السادس

"كانت معظم القوات الأمريكية الموجودة في العراق تكمل سنة كاملة في العراق الآن، في الفترة الواقعة بين شباط ونيسان، من عام ٢٠٠٤. وإذا لم يتم تقليص قواتنا بشكل كبير، كان يجب على قوات البحرية والجيش أن تحدد وحدات بديلة، مؤلفة من خمس كتائب على الأقل. ووضع كلاي على مكتبي مسوّدة مذكّرة من القيادة المركزية. وفيها يقترح الجنرال أبي زيد إرسال جنرال كبير إلى العراق "للتنسيق والتعاون والتركيز" على قوات الأمن العراقي، بما في ذلك الجيش الجديد، والشرطة، ودوريات الحدود.

"انظر،" قلتُ لكلاي. "أوافق أنه يجب رفع وتيرة هذه التدريبات. ولكن ثمة رسالة ضمنية هنا بأنه خلال فترة قصيرة، ستكون هذه القوات العراقية قادرة على الحلول مكان قواتنا. هذا لن يحدث بهذه السرعة، إذا كنا نسعى إلى إنشاء جيش عراقي، وشرطة عراقية محترفة وفعّالة."

"ولكن هذا بالضبط ما يجعلني أشعر بالقلق،" قال كلاي. "ثمة أناس في واشنطن وفي تامبا، ممن يحاولون إقناع أنفسهم، وربما رامسفيلد أيضاً، أنه مع حلول الربيع، ستكون القوات العراقية جاهزة للحلول محل كتائب الجيش الأمريكي، وفرقتي الخيالة المدرّعتين، الرابعة والخامسة."

"حسنٌ،" قلتُ، "علينا أن نسرع في عملية تدريب الجيش العراقي. ولكن يجب أن يصلوا إلى المستوى الاحترافي أولاً، لا أن يكونوا في مستوى المجرمين، الذين كان صدام يضمّنهم في قوات شرطته."

"يسعى سلوكومب جاهداً إلى تقليص برنامج الجيش إلى سنة واحدة،" قال كلاي.

خلال زيارة خاطفة إلى العراق في آب، دفع دون رامسفيلد باتجاه خطة تدريب متسارعة، تكون قادرة على "الإتيان" بسبع وعشرين كتيبة من الجيش العراقي الجديد، خلال عام واحد، عوضاً عن كتيبتين فقط، تقتضيهما خطة سلوكومب. إلا أن خطة تدريب موسّعة للتحالف، بقيادة الجنرال بول إيتون، كانت منهمكة جدياً في قاعدة كركوش، التي تبعد مئة ميل، شمال شرق بغداد.

"يعتقد سلوكومب أن إيتون قادر على إنجاح العملية،" قال كلاي. "لكنه سيكون تحدياً كبيراً. ولكن ما الذي سنفعله الآن بعد أن سقط خيار القاعدة الهنغارية؟"

قبل أن أغادر الولايات المتحدة بوقت قليل، كنت قد تلقيتُ أخباراً بأن البرلمان الهنغاري لم يتوصّل إلى اتفاق بشأن تدريب الشرطة العراقية الجديدة هناك.

أجبتُ، وأنا على شفا الإعياء، "أحضر بيرني أول شيء غداً. وسوف أطرح هذا الأمر مع رامسفيلد، حين يأتي إلى هنا الأسبوع القادم. عليّ أن أتوارى الآن وأرى مآزقي الجديدة."

"لقد تمّ تقديم الكثير للمنزل، سيدي،" علّق فرانك كلاغر، رئيس إدارة الأمن في شركة بلاك وتر. "جدرانٌ سميكة جميلةٌ."

كان ذلك هو السبب الرئيسي لانتقالي من البيت المتحرّك قرب القصر: الأمن. وبناءً على طلب رامسفيلد، قامت شعبة الأمن السري الأمريكية بتقييم شامل لأمني، وخرجت بنتيجة بأنني أكثر مسؤول أمريكي مهدّد في العالم. ليس لأن المنطقة الخضراء، كما كان يطلق القادة العسكريون على منطقة القصر، كانت عرضة لهجمات متكررة من الأسلحة الرشّاشة والصواريخ، بل لأن التقارير الاستخبارية كشفت النقاب عن أنني كنتُ أتصدّرُ قائمة الاغتيالات لدى المتمرّدين. وبين المئات من العراقيين الذين يعملون في القصر، في أعمال تتراوح بين وظيفة الحاجب وبين روابط الاتصال، عالية المستوى، مع مستشارينا في الوزارات، كان ثمة فسحة متوفّرة لقاتل واحد. وقد أشارت إحدى التقارير التي أخذتها شركة بلاك وتر على محمل الجدّ إلى أنّ أحد الحلاقين العراقيين، ممن كانوا قد عُيّنوا في القصر، قد أستؤجر لقتلي حين أقوم بقصّ شعري. وكانت بلاك وتر تريدني خارج البيت المتنقّل، الذي كنتُ أتقاسمه مع كلاي، إلى بناء يمكنها الدفاع عنه، والذي سيوفّر المزيد من الحماية ضد النيران المهاجمة والقتلة المتربصين من المتمرّدين.

وقفتُ قبالة الفيلا البشعة في الضوء الشاحب. إنها من مآثر نظام صدام: متأنقة في بنائها، متباهية، من دون تواضع. كانت توجد مجموعة من البيوت المتشابهة بين أشجار النخيل الشعثاء، على بعد ثلاث مائة ياردة عن القصر الرئيسي. كانت منطقة القصر برمّتها بمثابة مقاطعة عائلية لصدام. كان صدام قد بنى العديد من هذه الصروح الرخامية الشيطانية لأبنائه وأزواج بناته.

مشيتُ عبر الغرف الخاوية، غير المفروشة، المملوءة بالأعمدة الرخامية، والثريات المتدلية من سقوف عالية. كان للمكان سحر غرفة انتظار في محطة للقطارات. شعرتُ للتوّ بالحنين إلى غرفتي الصغيرة، في العربة المتنقلة.

"يمكنك الانتقال خلال بضعة أيام، سيدي،" أضاف كلاغر. "حالما ننتهي من بناء الملجأ." عرفتُ وأحببتُ فرانك، الذي كان يرأس، بمحض الصدفة، التفاصيل الأمنية لهنري كيسنجر، حين كنتُ أنا المدير الإداري لشركات كيسنجر في فترة التسعينيات. كان فرانك يعمل "منسّقاً خاصاً" في سلاح البحرية. وكنتُ أثق به ثقة مطلقة.

كانت قذائف الهاون والصواريخ قد بدأت تسقط في المنطقة القريبة من مقرات سلطة التحالف المؤقتة في الأسابيع الفائتة. هكذا ارتأى فريقي الأمني في بلاك وتر تأمين موقع قيادة مع ملجأ، مجهز بجدران أسمنتية، وزجاج مدرّع، في الزاوية الشمالية الشرقية للطابق الأرضي، من المنزل الجديد، لأنّ معظم هجمات الصواريخ والمدفعية كانت تنطلق من الجنوب الغربي، عبر نهر دجلة.

حين عدتُ أدراجي إلى بيتي المتنقل في البرودة النسبية، شعرتُ بالتردّد تجاه المقرات الجديدة. كان المنزل مزيجاً بين الأمان المتزايد والراحة، وبين العزلة عن فريق عملي، وعن حياة المدينة، والبلد نفسه. لكنني كنتُ مصمّماً على الاستمرار في التجوال، انطلاقاً من مقاطعتي- حول بغداد، وحول العراق- بالرغم من كل المخاطر. بدا بيرني كيريك منهكاً جسدياً، لكلكنه ما زال محافظاً على تصميمه. على مدى أسابيع، كان قد انصرف إلى العمل لساعات طويلة، محاولاً بناء الشرطة العراقية، ومحاولاً تحديث وزارة الداخلية. كان كيريك يعرف أن ثمة شيئاً ما في الأفق، لأنه قال بلهجة ساخرة، آتية من شرطي في شوارع نيويورك، "لماذا ينتابني شعور بأنها لن تكون جلسة أخبار جيدة، يا معلّم؟"

"صفقة تدريب الشرطة في هنغاريا ميتة، يا بيرني،" قلتُ، مناولاً إياه آخر الرسائل. "يترتب على برلمانهم دراسة ومناقشة القضية. وهذا يعني أنه لا يوجد قرار قبل نهاية السنة، على أقرب تقدير."

"لا نستطيع أن ننتظر كل تلك المدة،" قال.

"صحيح،" قلتُ، "بما أنّ بيرني عائد إلى الولايات المتحدة، عليك أن تحمل هذا الموضوع. يمكنك أن تعرضه على عمّان لنَر فيما إذا كنا قادرين على وضع اللَمسات الأخيرة على اقتراح تدريب الشرطة في الأردن."

"هل نحن متأكّدون بشكل مطلق أنه لا يوجد طريقة لإجراء التدريبات في العراق؟" سأل كلاي.

"كلاي، لقد ناقشنا هذا الموضوع عشرات المرات. ببساطة لا توجد إمكانية هنا ضمن الإطار الزمني الذي حدّده السفير بريمر،" أجاب كيريك بطريقة يائسة. "ويكمن العامل الأكبر في غياب المنشأة الضرورية الصالحة ...قاعات دروس، حقول رمي. ويمكنك أن تكمل العد. هذا غير موجود في العراق. نحن نتحدث عن تدريب حوالي خمسة وثلاثين ألفاً إلى أربعين ألفاً من ضباط الشرطة خلال عامين."

ربما أقل من ذلك، قلتُ في نفسي، لكنني لم أشأ الإفصاح علانية عن ذلك.

"كنتُ أشرف على أكبر قوة في البلاد، وكان لدي أكبر برنامج تدريب في أمريكا، يضمّ ست آلاف متطوّع، خلال عام واحد،" تابع بيرني. "إن البرنامج هنا يجعل ذلك البرنامج صغيراً وقزماً، إذا شئت المقارنة."

"حسنٌ، يا كلاي،" قلتُ، "اذهب إلى الأردن، وعُدّ لنا بخطّة. ضع مسودة رسالة سريعة، مبعوثة مني، إلى الملك، تعبر عن رجائنا لهم بتقديم المساعدة."

ذكر كلاي أنه يريد أن يصحب معه دوغ براند، البريطاني القدير، والخبير رقم اثنين في فريق بيرني، فوافقتُ على الفور.

بعد مرور يومين، تلقيتُ اتصالاً يطلعني على آخر الأخبار المتعلّقة بميزانية الدعم الإضافي من روبين جيفري، رئيس مكتب سلطة التحالف المؤقتة في البنتاغون. كان روبين قد خدم في بغداد لعدة شهور، في الصيف، قبل العودة إلى واشنطن للإشراف على مصالحنا داخل المؤسّسة. ولأنه عمل مصرفياً مستثمراً في السابق، أتى روبين إلى العراق، نتيجة رغبة خالية من الأنانية لمساعدة العراقيين، مثل جميع المتطوعين الآخرين. كان يملك فهماً قوياً للمشاكل المعقّدة التي تواجهنا. وكان يعرف أن البيروقراطيين في واشنطن لا يفهمون مشاكلنا جيداً. كان بمثابة عيني وأذني، يراقب جميع النشاطات الداخلية في الفرع التنفيذي للبنتاغون.

"لستُ على بينة بالتفكير الحالي المتعلق بالدعم الإضافي،" أخبرني روبين. كان لا يزال البنتاغون ومكتب التطوير والبيت الأبيض يدرسون الآليات لنقل ملف الدعم الإضافي إلى الكونغرس. "أعتقد أن مكتب التطوير قد توقّف عن خلق العراقيل أمام المبلغ، وأظن أن حصة سلطة التحالف المؤقتة من طلب الدعم المالي ستكون قريبة من العشرين مليار دولار التي اقترحتموها."

كان ذلك خبراً سعيداً نادراً في وقت كانت كل مكالمة هاتفية، ورسالة إلكترونية، تأتي بأخبار سيئة عن مشكلة هنا، وأزمة هناك. وكان الاقتراح الذي أعدّه من أجلي ديفيد أوليفر مع زملائه الآخرين، من أجل تقديمه إلى واشنطن في آب قد حدد كأولوية أولى إعادة بناء قوات الأمن في العراق- وبتكلفة تصل إلى ستة مليارات دولار. كنا قد اقترحنا أيضاً توسيع دائرة توليد الطاقة الكهربائية، وترميم صناعة النفط.

كانت تلك أولويات تستحقّ كل دولار يُصرف من ميزانية الدعم الإضافي المطلوبة فعلاً لإنجازها، أي قوات أمن عراقية تستطيع حماية بلدها، وإنشاء مراكز مستقرة لتوليد للطاقة الكهربائية، تساعد في إرجاع ثقة الناس بمستقبل مستقر، مزدهر، وخلق صناعة نفطية، تستطيع تلبية الحاجيات الهائلة المتنامية للشعب العراقي.

ولكن يظل مبلغ عشرين مليار دولار كبيراً بالتأكيد. ولم أكن أشك بأن الكونغرس سيجعلني أقدّم الكثير من التفاصيل قبل الموافقة.

لكنني كنتُ مستعداً لأن أكون حقيبة ملاكمة أمام أعضاء الكونغرس، وعلى مرأى من عدسات الكاميرا، إذا كان هذا يعني الحصول على التمويل الذي يحتاجه العراقيون.

لكنني لم أكن أملك فكرة عن القوة التي سيلكمون بها. وكم ستكون درجة الإصابة.

وفيما كنتُ أقلب الأمر على وجوهه، سمعتُ انفجاراً أجوف يأتي من جهة الغرب. ربما كان ذلك انفجاراً آخر لسيارة ملغومة.

يتبع